بنية الزمن في رواية سمرقند

أ. سليمة بالنور *

رواية سمرقند Samarkand صدرت عام: 1988 باللغة الفرنسية للروائي اللبناني أمين معلوف، وترجمها للغة العربية الدكتور عفيف دمشقية، وتقص حكاية عمر الخيام الشاعر العالم والفلكي المشهور وعلاقته بالسلطة المتمثلة في نظام الملك الوزير السلجوقي والملك ملكشاه، والمعارضة المتمثلة في حسن الصّباح شيخ الجبل (زعيم أخطر طائفة في الشرق)، وهي رواية ترصد بالخصوص حركة مخطوط رباعيات الخيام سمرقند منذ بداية تأليفه إلى ضياعه في المحيط الأطلسي على سفينة التيتانيك.

ولدراسة بنية الزمن بمستوياته الثلاثة في رواية سمرقند نقسم الحكي إلى: قصة وخطاب ونص، متبنين إجراء الناقد سعيد يقطين، الذي نجده قد وفق بين مختلف النظريات والاتجاهات النقدية التي أدت إلى التقسيم الثنائي أو الثلاثي[1].

---

* جامعة تبسة، الجزائر.

1- حول هذه القضية ينظر:

a. R.Barthers: "introduction à l'analyse structurale des récits", communication, N°: 8, 1966.
b. E.Benveniste: problèmes de linguistique générale, edi. Tel Gallimard, TI 1966, TII 1974.
c. R.Fowler: linguistique and the novel, Methuen. London, third edi, 1984.
d. G.Genette: "Frontières du récit". Communication, N°: 8، 1966. "Discours du =

فالزمن الأوّل: زمن القصة: الذي يظهر في زمن المادة الحكائية وفي التجربة الواقعية والمدركة ذهنيا، وهو زمن خطي يسمى الزمن الصرفي، ويرى أنه غير قابل لأن يتجسد في أنحاء عديدة يمده بها تعدد الخطابات.

أما الثاني: فزمن الخطاب: وهو الزمن الذي تعطى فيه القصة زمنيتها الخاصة من خلال الخطاب في إطار العلاقة بين الراوي والمروي له وهو (زمن نحوي)[2].

الثالث هو زمن النصّ: وهو الزمن الذي يتجسد أوّلا من خلال الكتابة، التي يقوم بها الكاتب، في لحظة زمنية مختلفة عن زمن القصة والخطاب ومن خلالها يتجسد الزمنان: زمن الكتابة، وزمن القراءة، زمن تلقي النص من قبل القارئ في لحظة زمنية مختلفة، عن باقي الأزمنة، فتعالق زمن الكتابة بزمن القراءة يجسد زمن النصّ، وكما يتجسد من خلال العلاقة بين الكاتب والقارئ على المستوى الدّلالي: (الزمن الدّلالي)[3].

وحسب تصور الناقد سعيد يقطين فالعلاقة بين بعدي زمن النصّ (زمن القراءة وزمن الكتابة)، هي علاقة بناء (Construction)، ومن خلالها يتم إنتاج الدّلالة، فزمن القصة سابق عن عملية الكتابة ويتم ترهينه وسلب صرفيته من خلال إنجاز الخطاب بإعطائه بعدا نحويا، وعبر الكتابة أي إنجاز الخطاب زمنيا يتحقق زمن النصّ في بعده الأوّل الدّاخلي: زمن الكتابة، أمّا زمن القراءة وبكونه خارجيا ولاحقا فإنه يأتي بعد تحقق الزمنين السّابقين عمليا من خلال الخطاب –النصّ–.

1. زمن القصّة: قبلي خارجي.

= récit", Figures III, seuil, 1972.

e. T.Todorove: "les catégories du récit littéraire", communication, N°: 8, 1966.

2- حول هذه القضية ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001. تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997.

3- سعيد يقطين: انفتاح النصّ الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص49.

2. زمن الخطاب: زمن النص (الكتابة): آني وداخلي.
3. زمن النصّ: (القراءة) بعدي وخارجي[4].

والتفاعل الحاصل بين زمن القصة وزمن الخطاب وزمن النصّ في بعده الأوّل الدّاخلي يجسد البناء النصي على المستوى الدّاخلي، والذي يرى يقطين أنه يمكن تحليله انطلاقا من ذلك التفاعل، وزمن النصّ المتمظهر من خلال فعل القراءة يتم من خلال التفاعل مع زمن النصّ في معناه، بكونه بناء نصيا داخليا ومباشرا مجسدا من خلال النصّ[5].

وسنقوم بدراسة زمن القصة وزمن الخطاب اللذين يتعالقان لينتجا لنا زمن النص الأدبي في سمرقند، لنقف من خلالهما على بناء النص على المستوى الدّاخلي.

1. زمن القصة

إنّ زمن القصة يظهر لنا في سمرقند، من خلال توالي المادة الحكائية ضمن حدود إشارات زمنية تاريخية، تمثل: 1072 بدايتها و1912 نهايتها، هذا الزمن الصّرفي، أمّا زمن الخطاب في الرواية فيعطيه زمنا آخر، باشتغاله على مادته الزمنية الصّرفية، مقدما من خلال ذلك زمنا، يبدأ بـ: 1912 ليعود لـ 1072م ثم ينتهي بـ 1912م، وبهذه العملية يكتسب زمن الخطاب خصوصيته التي تكمن في تخطيبه زمن القصة وترهينه.

تقدم لنا القصة في سمرقند إشارات زمنية تاريخية عديدة تظهر هذه الإشارات الزمنية المحددة من خلال:

1. السنوات.
2. الشهور.
3. الأيام (صباح، مساء، ليل).

4- ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص/50.
5- ينظر: المرجع نفسه، ص/51.

4. الفصول والمواسم.

وهذه الإشارات تكاد تطرز كل الرواية، وتأتي محتواة في بعض الخطابات ومذيّلة لرسائل شرين إلى الراوي عمر لوساج بنيامين، حيث يمتد زمن القصة من 1072 إلى 1912 أي: 840 سنة، وضمن هذه المدة نجد 32 سنة فقط مسجلة، على حين 808 سنة غير مسجلة بالإضافة إلى عدم التكافؤ في تسجيل السنوات الاثنتين والثلاثين:

1. سنة 1072 تحتل تقريبا 67 صفحة.
2. 1074 تحتل تقريبا 31 صفحة.
3. 1079 تحتل تقريبا سطرا واحدا.
4. 1081 تحتل تقريبا 19 صفحة.
5. 1089 تحتل تقريبا 4 صفحات.
6. 1090 تحتل تقريبا صفحة واحدة.
7. 1092 تحتل تقريبا 23 صفحة.
8. 1094 تحتل تقريبا 16 صفحة.
9. 1114 تحتل تقريبا 9 صفحات.
10. 1131 تحتل تقريبا 4 صفحات.
11. 1162 تحتل تقريبا صفحة.
12. 1164 تحتل تقريبا 3 صفحات.
13. 1257 تحتل تقريبا 3 صفحات.
14. 1851 تحتل تقريبا 6 أسطر.
15. 1859 تحتل تقريبا 7 أتسطر.
16. 1861 تحتل تقريبا 5 أسطر.
17. 1867 تحتل تقريبا سطرا واحدا.
18. 1868 تحتل تقريبا سطرا واحدا.
19. 1870 تحتل تقريبا 5 صفحات.
20. 1873 تحتل تقريبا سطرا واحدا.
21. 1895 تحتل تقريبا 30 صفحة.

22. 1896 تحتل تقريبا 27 صفحة.
23. 1897 تحتل تقريبا 5 صفحات.
24. 1899 تحتل تقريبا 3 صفحات.
25. 1900 تحتل تقريبا صفحتين.
26. 1901 تحتل تقريبا 4 أسطر.
27. 1904 تحتل تقريبا سطرا واحدا.
28. 1905 تحتل تقريبا سطرا واحدا.
29. 1906 تحتل تقريبا 21 صفحة.
30. 1909 تحتل تقريبا 36 صفحة.
31. 1911 تحتل تقريبا 14 صفحة.
32. 1912 تحتل تقريبا 12 صفحة.

فالسنوات المسجلة والمرتبة في الرواية يتم حذف ما بينها من سنوات من 1072 حتى 1912، غير أنّنا نجد 1895 و1896 و1897 مسجلة حسب الترتيب، كذلك 1904، 1905، 1906، كما نلاحظ تفاوتا كبيرا في توزيع السنوات المسجلة بحسب الصّفحات، فتحتل السنة الأولى 1072 النصيب الأوفر، بكونها سنة رصد مجتمع تدوين مخطوط سمرقند وبداية تأليفه على يد عمر الخيام، تليها السنوات الأخيرة من 1906 حتى 1912 في عدد الصفحات بكون هذه المدة تؤرخ لتحوّل مهم في تاريخ بلاد فارس، (قيام الدّستور) بالإضافة للعثور على مخطوط سمرقند الذي ضاع في آخر المطاف في المحيط الأطلسي بغرق سفينة تيتانيك.

فالمادة الحكائية في النص الروائي سمرقند، سابقة زمنيا على الكتابة (النص)، بكون هذه المادة تاريخية، مستمدة من تاريخ القرن الحادي عشر وأوائل القرن العشرين، وهي على مسافة زمنية بعيدة من النص.

2. زمن الخطاب

يبدأ معلوف أولا بتقديم حقيقة سمرقند ومآله، حيث يتحدث الراوي عمر لوساج عن ذلك المخطوط الذي ضاع في المحيط الأطلسي في سفينة التيتانيك:

« في أعماق المحيط الأطلسي كتاب. وقصته هي التي سأرويها.

ربما كنتم تعرفون خاتمتها، فالصحف قد ذكرته في حينه، وسجلتها بعض المؤلفات مذ ذاك: عندما غرقت الباخرة تيتانيك في الليلة الرابعة عشرة من شهر نيسان (أبريل) 1912 في عرض مياه (الأرض الجديدة) كان أعظم الضّحايا وأعجبها كتابا هو نسخة فريدة من (رباعيات) عمر الخيام، وهو حكيم فارسي وشاعر وفلكي... »[6].

وهنا يقوم البناء في نقطة مركزية في بناء النص، وهذه البداية تجعلنا نستفسر: ما مخطوط سمرقند؟ ومتى؟ وكيف ألّفه عمر الخيام؟ وكيف عثر عليه في أوائل القرن 20 قبل ضياعه في المحيط الأطلسي ...؟! فبعد تقديم ذلك المشهد، يعود بنا معلوف إلى نقطة البدء الأولى: ظهور عمر الخيام في سمرقند (صاحب المخطوط)، وهو يتجول في أزقتها، وبصفته غريبا وفيلسوفا ذائع الصّيت فقد اقتيد للقاضي أبي طاهر بتهمة لا أساس لها من الصّحة، وما نتج عن هذا اللّقاء من أحداث: لقائه مع نظام الملك وحسن الصّباح، ومشاهدته للاضطرابات الحاصلة في دولة السلاجقة جراء الفرقة الباطنية، وفي غمرة هذه الأحداث كان عمر الخيام يدوّن ما جادت به قريحته من شعر الرباعيات في كتابه المصنوع من شجر التوت الذي أهداه له قاضي سمرقند أبو الطاهر إلى أن سرق منه هذا المخطوط ليستقر في مكتبة آلموت، وهنا تنتهي المرحلة الأولى من الأحداث.

وتأتي بعد ذلك أحداث أواخر القرن 19 وأوائل القرن العشرين، ليعايشها مخطوط سمرقند باضطراباتها ونزاعاتها وتحوّلاتها السياسية، إلى أن يضيع غرقا في المحيط الأطلسي، وبضياعه تنغلق الدّائرة، وتمتلئ لدينا كل البياضات التي كانت مجسدة من خلال الاستباق، وتنتهي الرواية والراوي يأمل في إيجاده من جديد، بل الاستعداد للبحث عنه.

هذه الصّورة تبدو لنا بوضوح نقيضة الصّورة المكوّنة لدينا عن كيفية اشتغال

6- أمين معلوف: سمرقند، تر: عفيف دمشقية، دار الفارابي-Anep، الجزائر، ط2، 2001، ص/9.

النصّ على المادة التاريخية، مثل روايات جورجي زيدان، سليم البستاني وغيرهما[7].

يبدأ معلوف من نقطة مهمة جدا في تمفصل الأحداث ثمّ يعود إلى نقطة البدء ويظل مستمرا إلى النقطة التي بدأ منها، فبهذه الطريقة يبني الروائي نصه، حيث أعطى للمادة الحكائية الخام (1072- 1912) بناء وشكلا مختلفا وجديدا عما ألفناه في المرويات السّردية التقليدية، فينتج عالما زمنيا جديدا وبهذا يقدم دلالة معينة سنقف عندها لاحقا.

وعن طريق المفارقات الاسترجاعية يؤوب زمن الخطاب إلى الماضي القريب للتعرف على بعض الأحداث المهمة التي حدثت في زمن القصة ومن ثم ترهينها في الخطاب، كاستيلاء طغرل بك على فارس وبداية ظهور رباعيات الخيام في أوربا وترجمتها إلى اللّغات الأوربية، فالمفارقات الاسترجاعية مهيمنة على الرواية، منها ما يحكيه جمال الدين الأفغاني للراوي عمر لوساج مسترجعا رحلاته في العالم العربي والغربي: « لقد عشت في باريس في غرفة معتمة، بيد أنها كانت تطل على العالم الأوسع، كانت أصغر من هذا البيت بمئة مرة، غير أنّي كنت أقل شعورا بالضّيق، وكنت بعيدا آلاف الكيلومترات عن شعبي »[8].

فجمال الدين الأفغاني يسعى لأن يجعل الشرق يواكب الغرب في انفتاحه وحريته بتخلصه من الاضطهاد وكبت الحريات، ولكن هذا الاسترجاع الذي نعود من خلاله إلى حدث مهم في حياة الأفغاني يساعد على رؤية شخصيته من الدّاخل والتعرف عليها أكثر مع تبرير تصرفاتها.

ومن المفارقات الاستباقية التي ترهن زمن القصة ما يذيّل به معلوف بعض المقاطع كحلقة منفتحة تشوق القارئ وتجعله يسعى للوصول إلى ذلك الحدث: « فهو يدعى الطالب ذا الندبة، وسيجعل سمرقند ترتعد في المستقبل وفي يده هراوة وعلى لسانه استشهاد »[9]، استباق يتنبأ بمصير الطالب ذي الندبة الذي قاد

7- ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، ص/65.
8- سمرقند، ص/219.
9- سمرقند، ص/17.

عمر الخيام إلى قاضي سمرقند بتهمة ملفّقة سنة 1072 وبتوالي الأحداث نجده في سنة 1081 من أبرز الفدائيين في فرقة الحشاشين.

ونجد استباقات عديدة، منها استباق حدث ظهور النظامية للانتقام من الحشاشين لمؤسسها نظام الملك الذي اغتاله أحد مريديها، وهذا الحدث ساقه أمين معلوف عند طعن نظام الملك مباشرة، وقبل تجمع الناس حوله: «ليس في وسع أحد أن يناقض القول بأن حسن الصّبّاح قد نجح في بناء أشد آلات القتل هَوْلاً في التاريخ، ومع ذلك فقد انتصبت في وجهها في نهاية ذلك القرن الدّامي آلة أخرى هي (النظامية) التي ستنذر الموت إخلاصا منها للوزير القتيل بطرق شتى، قد تكون أشد من طرق تلك مكرا ومخاتلة، بيد أنّها بالتأكيد أقل منها خلبا للألباب وإن لم تكن نتائجها أقل تخريبا وتدميرا»[10]، كذلك تنبؤ بما كان سينظمه حسن الصّبّاح من فرقة أرهبت العالم انتقاما لما صدر من نظام الملك من نفيه عن بلاد فارس «غير أنّ رجل (قم) سيعود لإنجاز انتقام يضرب به المثل»[11].

فالمفارقات الزمنية (استباق/استرجاع) حاضرة بشدة في الرواية، حاولنا رصد أهمها على سبيل التمثيل لا الحصر، وتأتي في الخطابات التقليدية لتؤدي وظيفة تزويد القارئ وإخباره بمعلومات إضافية تساعده على فهم الأحداث، ولكن هذه الوظيفة تعد إضافية في نص سمرقند وليست إلا بدرجة ثانوية، فهذه المفارقات الزمنية بالإضافة لتقديمها مزيدا من الأخبار عن الشخصية المقدمة، فهي تحتل وظيفة مركزية أهم، إنّها ذات وظيفة بنيوية، لأن شخصيات سمرقند: عمر الخيام، نظام الملك، جمال الأفغاني ... إلخ التي تحيا أمامنا يشكل ماضيها حاضرها؛ لذلك تهيمن الاسترجاعات الخارجية خاصة وتتوازى مع الحاضر الذي تحياه الشخصيات كما رأينا في الأمثلة السّابقة.

ومن اللّعب الزمني أيضا نجد التضمين والحذف والوقفة والمشهد وغيرها،

10- سمرقند، ص/152.

11- سمرقند، ص /109.

كلّها تجعل الزمن الصّرفي للقصة زمنا نحويا بترهينه في الخطاب، فالتضمين[12] موجود بشكل واضح ومن خلاله يتم دمج قصة داخل القصة الأصلية في الخطاب: « عندما أراد جدّي -أدام الله ذكرى حكمته في النفوس- أن يستولي على بلخ امتشق سكانها الأسلحة في غياب ملكهم وقتلوا عددا كبيرا من جنودنا مكرهين جيشنا على الانسحاب، وقد كتب جدّي حينذاك إلى محمود صاحب بلخ كتابا حافلا باللّوم والعتاب: إنّي لأرغب في مواجهة بين جيشنا، فالله يؤتي نصره من يشاء، ولكن ما يكون مآلنا إذا بدأ العامة يتدخلون في نزاعاتنا؟، ولقد وافقه محمود على ذلك وعاقب رعاياه ومنعهم من حمل السّلاح وجعلهم يدفعون الذهب لقاء الدّمار الذي سببته المعارك »[13].

وبكون المشهد هو الذي ترد فيه الأحداث مفصلة بكل دقائقها ويجعل زمن القصة مساويا لزمن الخطاب نجد في المتن الروائي سمرقند أنواعا من المشاهد الكثيرة، منها مشاهد (استرجاعية) كان عمر لوساج بطل الرواية طرفا في أغلبها ومنها المشاهد الحوارية، وعلى سبيل المثال هذا المشهد الذي يجسد فيه أمين معلوف صورة من صور تلك الثورة الدّستورية في تبريز: « بغتة عرانا بعض الارتعاش، ومهما توقع المرء أمرا، ومهما كان محتميا بجدار، فإن مرأى جمهور هائج يزعق حتى الموت، ويهجم عليه مباشرة هو أكثر المحن بعثا على الهلع.

وهمست بشكل غريزي:
كم عددهم؟
وأجاب فاضل بصوت مرتفع واضح مطمئن:
ألف، ألف وخمسمائة على الأكثر.
قال ذلك قبل أن يضيف وكأنه يصدر أمرا.

12- مصطلح سردي لتدروف: حول هذا الموضوع ينظر:
- T.DOROVE: " les catégories du récit littéraire", communication, N: 8, op.cit.
13- سمرقند، ص/63.

الآن جاء دورنا لإنزال الرّعب في قلوبهم»[14].

ومن بين المشاهد الكثيرة أيضا الشبه المستقلة عن بعضها بعض حدثيا وزمنيا، خاصة عند بداية كل مقطع، تجعلنا أمام صعوبة موقعة الأحداث زمنيا وربطها بعضها ببعض، منها مشهد لقاء عمر لوساج بميرزا رضا والحوار الذي دار بينهما حول مخطوط سمرقند، بعدها ينتقل معلوف مباشرة لمشهد آخر، مشهد قلق ومروع مشهد فاضل وهو يقرع باب غرفة عمر لوساج مبلغا إياه أنّ الشاه قد قتل، وهو متهم مع ميرزا رضا بقتله وعليه الهرب.

المشهد 1

« عندما علم أنّي قادم من عند جمال الدّين جثا على ركبتيه، وتشبث بيدي يمطدهما بالقبل، وإذا ضاق فاضل ذرعا بالأمر فقد غمغم باعتذار وابتعد.

ناولت ميرزا رضا رسالة السّيد، وانتزعها على وجه التقريب من يدي، ومع أنّها كانت تحتوي على عدّة صفحات، فقد قرأها بأسرها من غير عجل، ناسيا تماما وجودي.

وانتظرت أن يفرغ منها لأحدثه عمّا يشغل اهتمامي، لكنّه قال لي عندها بمزيج من الفارسية والفرنسية صعب عليّ فهمه:

الكتاب مع جندي من مواليد كرمان، وهي أيضا مدينتي، وقد وعد بالمجيء لرؤيتي هنا بالذات بعد غد الجمعة، وينبغي إعطاؤه قليلا من المال، لا لشراء الكتاب منه، وإنّما لشكره على أنّه استعاده، ولست أملك ويا للأسف قطعة نقد واحدة.

ومن غير أن أتردد أخرجت له من جيبي الذّهب الذي أرسله إليه جمال الدين، وأضفت إليه مبلغا مماثلا، وبدا راضيا:

ارجع يوم السبت، وإن شاء الله سيكون المخطوط معي فأعهد به إليك

14- سمرقند، ص/299، ص /300.

وتسلّمه إلى السيد في القسطنطينية »[15].

المشهد 2

« إنّه قرع متكرر وخانق على بابي، وخلصت إلى سماعه فتمطيت وأجفلت وهرعت حافي القدمين، ملبدّ الشعر، مرتخي الشارب، مرتديا جلبابا فضفاضا، كنت قد اشتريته أمس، ووجدت أصابعي الرخوة صعوبة في فتح المزلاج، ودفع فاضل الباب وأزاحني لإعادة إغلاقه وهزني من كتفي.

استيقظ ستكون بعد ربع ساعة في عداد الأموات! »[16].

كذلك يوظف معلوف تقنية الحذف l'ellipse[17] كعنصر أساس في اللّعب الزمني وهذا ما يفسر نقله لأحداث اثنتين وثلاثين سنة، من بين 840 سنة. ومن الحذف نجد المدة الزمنية بين اختفاء المخطوط باحتراق مكتبة آلموت في القرن 13م وظهور عمر لوساج في أواخر القرن التاسع عشر يبحث عن ذاك المخطوط النفيس، وأيضا ما تم من حذف للسنوات، وعلى سبيل المثال: « لقد مرت سبع سنوات؟، سبع سنوات سعيدة للخيام كما للإمبراطورية »[18]، والسكوت عن ذكر ما جرى في هذه المدة الزمنية من أحداث لا يؤثر على مجرى الأحداث الرئيسة للرواية، وهناك محذوفات هي أقصر زمنيا من قبلها منها:

- « لقد ترك هذا المسافر سمرقند منذ ثلاثة أشهر طوال »[19].
- « وما إن مرت بضع ليال مكدّرة حتى لاحت فكرة في ذهنه، ما لبث عمر أن تقبّلها بقبول حسن »[20].

وبهذا تضيق المسافات الزمنية المقدمة لنا من خلال الخطاب في علاقته

15- سمرقند، ص/236، ص/ 237.
16- سمرقند، ص/238.
17- مصطلح لجيرار جنات: ينظر: G.Cenette, "discours du récit", figures III, op.cit.
18- سمرقند، ص/113.
19- سمرقند، ص/81.
20- سمرقند، ص/182.

بالقصة، فالقصة منتهية لكنّها لا تقدّم لنا شيئا مضى وتأتي المفارقات الزمنية والتضمين والمشاهد والحذف ... إلخ، كخرق للنظام الزمني المفروض وكتلاعب زمني يسهم في تقليص المسافة بين ماضي القصة وحاضر الخطاب، وعليه فالخطاب يعمل على ترهين الأحداث المقدمة المادة الحكائية: تدوين رباعيات الخيام وسرقة هذا المخطوط، البحث عنه، إيجاده ثمّ إضافته بغرقه في المحيط والأحداث المصاحبة لمختلف مراحل المخطوط، من كتابته إلى ضياعه في حقبتين زمنيتين متباعدتين بينهما قرابة ألف عام، سواء أخذت هذه الأحداث بعد الترتيب أو بالمفارقات الزمنية، ويمكن التأكدّ من ذلك في ملاحظة الإشارتين الزمنيتين المرتبطتين ببعضهما والمهيمنتين بشكل مركزي في النص والدّالتين على الآنية: (الآن) و(هنا) (de la) أو (à ce moment)، (ici).

ومن ثم يمكن القول أن الزمن السّردي المقدم في القصة سمرقند ليس الزمن التقليدي الدّال على الماضي، فزمن القصة مع أنّه منته بكون المادة الحكائية سابقة للخطاب (الكتابة) يبدو وكأنّه يجري أمامنا الآن، فترهين المادة التاريخية يبين لنا الدور الإنتاجي للنص على الصعيد الزمني سواء على مستوى البناء أو الدّلالة، وهذا الترهين -بكونه بعدا زمنيا- أسهم بدور كبير في خلق نوع من الضبابية والعتامة في النص، وهو ما يصعب على القارئ تلقي النص.

لذلك فالخطاب الروائي سمرقند تعامل مع الزمن بطريقة مختلفة عما عرفناه في الخطابات الروائية التقليدية، فالبدء بالاستباق والرجوع لنقطة البدء والمفارقات الزمنية الزاخرة في المتن يكسر الخطية والتسلسل الزمني الذي ألفناه، فمعلوف يكسر خطية المادة الحكائية بترهينها في الخطاب، حيث يضعنا في زمن الخطاب المختلف عن السّائد والمألوف، فمن خلال ترهين المادة الحكائية لخطاب سمرقند وتكسير بنائه الخطي نجد أن (معلوف) لا يعيد بناء شكل الخطاب التقليدي بخطاب سمرقند بل يقدم دلالة جديدة على مستوى النص سمرقند.

3. زمن النص

كما رأينا من خلال اشتغال زمن القصة وزمن الخطاب وتعالقهما على

الصعيد النحوي (المفارقات، التضمين، الحذف ...) نحاول الآن مقاربة البعد الأفقي في بناء النص، فنتطلق من إشارات أخرى بنائية ظاهرة كتابيا من خلال توزيع النص إلى أقسام حسب الكاتب أمين معلوف، لنقف على زمن النص من خلال البناء الخطي الذي يمكن إحالته كما يقول يقطين إلى ذاتية الكاتب[21].

تقسّم سمرقند كنص أربعة أقسام غير متساوية في عدد الصّفحات، يسمي معلوف كل قسم كتابا، وكل كتاب وضع له عنواناً.

حيث يبدأ النص بتقديم الراوي عمر الخيام لوساج بنيامين وهو يروي نهاية مخطوط سمرقند، الذي تحمّل لأجله مشاق رحلته إلى بلاد فارس للبحث عنه، وقد ضاع وغرق المخطوط في المحيط الأطلسي سنة 1912 بغرق باخرة تيتانيك، ويضم التقديم صفحتين.

وأربعة كتب معنونة كالتالي:

الكتاب الأوّل: شعراء وعشاق: Poètes et amants، ويضم 98 صفحة و14 مقطعا.

الكتاب الثاني: فردوس الحشاشين: Le paradis des assassins، ويضم 86 صفحة و10مقاطع.

الكتاب الثالث: نهاية الأعوام الألف: La fin du millénaire، ويضم 87 صفحة و11مقطعا.

الكتاب الرابع: شاعر تائه: Un poète à la mer، ويضم 85 صفحة و13 مقطعا.

نلاحظ أنّ عدد صفحات الكتب تقريبا متساوية في توزيعها، نستثني ما قبل الكتاب الأول (الاستهلال) الذي يتكون من صفحتين والكتاب الأول الذي يضم عدد صفحات أكثر كذلك المقاطع، ولتفسير ذلك علينا ربط الكتب الأربعة بالسنوات التي دوّناها في زمن القصة، ولاحظنا عدم التكافؤ بين توزيع السنوات الثانية والثلاثين المسجلة وعدد الصّفحات التي تستوعبها، وعليه فالكتابان الأوّل والثاني يضمان: 184 صفحة، ويتضمنان الفترة أو الحقبة التاريخية الأولى، التي بدأ

21- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص/59.

فيها تدوين مخطوط الرباعيات وكتابته على يد الشاعر عمر الخيام، وتسجيل رحلاته والأحداث التي صاحبتها على هامشه من طرف صديقه ورطان إلى أن اختفى المخطوط، حيث سرق لمصلحة حسن الصّباح زعيم الإسماعيليين، ليحتفظ به في مكتبة آلموت، وهي مرحلة مهمة في الرواية، حيث تمتد زمنيا من [1072م إلى 1257م]، وفي الكتابين الثالث والرّابع نجد أنفسنا تنتقل من 1851 إلى 1912، أي: منذ ظهور رباعيات الخيام في أوربا، وبداية ترجمتها إلى الإنجليزية والفرنسية إلى عزم عمر لوساج بنيامين السّفر لإيران والبحث عن مخطوط سمرقند، ليجده ثمّ يضيّعه في البحر.

فمن خلال التوزيع نجد أنّ القسم الأوّل الذي يضم الكتابين الأوّل والثاني يضم أكثر الصّفحات عددا؛ لأنّه يتقصّى بنية المجتمع الذي أنتج وألّف فيه مخطوط سمرقند، مجتمع عمر الخيام، والذي انعكس على محتوى الرباعيات التي كانت تجسّد المحظور في ذلك المجتمع الشرقي، ويكاد يتقارب مع القسم الثاني في عدد الصّفحات، الذي يرصد أيضا بنية المجتمع بعد ألف عام، حين ظهر مخطوط سمرقند للوجود وما صاحبه من تحوّلات جذرية، منها قيام ثورة الدستور، والتدخل الروسي والبريطاني، ومقتل الشاه، والإصلاح المالي من قبل شوستر، ونشاط جمال الدّين الأفغاني.

وعليه يمكننا تقسيم زمن الخطاب إلى أربع حركات:

1. تدوين المخطوط (رباعيات الخيام).
2. ضياع المخطوط (سرقته).
3. إيجاده.
4. إضاعته مرة أخرى.

ويمكن تأطير هذه الحركات الأربع ضمن الأحداث والشخصيات؛ لأنها تتصل بها اتصالا وثيقا، فتدوين المخطوط: كتابة عمر الخيام رباعياته حدث مركزي يقوم عليه نص، فيه يبدأ الكتاب الأوّل، حيث تتزامن كتابته مع قيام إمبراطورية السّلاجقة في عصر ملكشاه ووزيره نظام الملك والفرقة الباطنية (الحشاشين) وزعيمها حسن الصّباح الذي يصبح صديقا لعمر الخيام، وكل هذه

الأحداث قد سجلها ورطان على هامش صفحات المخطوط، بعلم عمر الخيام، فيسرق منه ويودع في مكتبة آلموت تحت تصرف صاحبها شيخ الجبل، وبزحف المغول لآلموت في القرن13م يتم حرق مكتبتها، ولكن شخصا مجهولا قام بإنقاذ المخطوط قبل أن تلتهمه ألسنة النيران.

وينقطع السّرد، ليعود ويبدأ في القرن 19م وتحديدا أواخره، ونجد الراوي الأمريكي عمر لوساج بنيامين المهووس بعمر الخيام، يسافر باحثا عن المخطوط الأصلي للخيام، ليلتقي بجمال الدّين الأفغاني المفكر الإصلاحي الحر فيعلمه بمكانه، وبعد مغامرات عديدة يشارك ضمنيا في مقتل الشاه وفي ثورة تبريز لأجل الدّستور، ويتحصل على المخطوط بفضل الأميرة شرين حفيدة ناصر الدّين الشاه المغتال، ولكن خلال عودة الراوي الباحث عن المخطوط عمر لوساج إلى أمريكا على متن سفينة التيتانيك التي تغرق ويغرق معها كنز الخيام النفيس في أعماق البحار.

ووفق هذه الحركات يقدّم النص بنية مجتمعين هرميين؛ الأول يحتل فيه ملكشاه والسلطانة تركين خاتون وجيهان والحاشية رأسه، على حين يمتد مريدو حسن الصباح على قاعدته، ويتوسط الرأس والقاعدة حسن الصباح، وهذه البنية الكلية لعالم النصّ تنتظم في نطاقها بنيات عديدة صغرى، لعلّ أهمها كما يبدو لنا من خلال فضاء النصّ، بنية نقيض' وتمثلها النظامية التي تحتل القاعدة، وعلى قمتها نظام الملك وزير ملكشاه ويتوسطها عمر الخيام ضمنيا.

والثاني: يحتل فيها شاه إيران القمة، يليه في وسط الهرم التدخل الروسي، وفي القاعدة جيش القوقاز، أما بنية النقيض فنجد في القمة جمال الدّين الأفغاني، وفي وسط الهرم فاضل وميرزا رضا ونواب البرلمان وفي القاعدة الوطنيين.

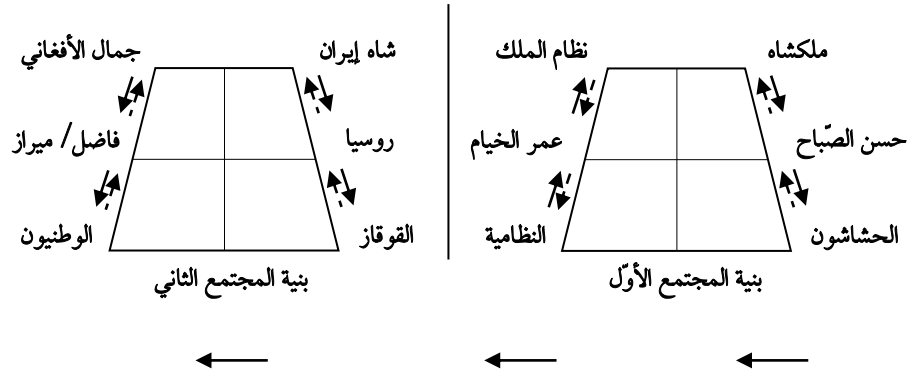

تدوين المخطوط سرقته إيجاد المخطوط إضاعته.

بالنسبة للمجتمع الأوّل: في القمة ملكشاه/ نظام الملك، يملكان السلطة، سلطة متنافرة القطبين، يرتكز ملكشاه على حسن الصّباح من خلال خيانة عمله لدى نظام الملك (صاحب الخبر) ويكون فرق لهذا الأخير من الاستشهاديين الذين يخدمون ملكشاه وقت الضرورة، كمقتل نظام الملك، ونظام الملك يرتكز على النظامية التي تنتقم له أيّما انتقام. وعمر الخيام المبجّل لديهم بصفته صديقا لنظام الملك خارج السلطة والذي تقتفي أثره النظامية للوصول لحسن الصّباح لقتله.

المجتمع الثاني: في القمة شاه إيران/ جمال الدّين الأفغاني قطبان متعارضان، حيث يعمل الشاه على اضطهاد الشعب وكبح حريته من خلال الامتيازات الأجنبية، والتدخل الروسي في شؤون الدولة، وبالاستناد إلى الفرق القوقازية التي أرسى دعائمها الروس بالطبع، على حين نجد جمال الدين الأفغاني ينادي بأعلى صوته ومن كل أنحاء العالم بأن يسود إيران ديمقراطية ودستور ينظم سياستها، ويرسخ الأفغاني هذه المبادئ في أذهان مساندیه ومريديه في إيران – بكونه منفيا من بلاده– فيلجؤون إلى تأليب الوطنيين في تبريز والقيام بثورة ضد الشاه وضد التدخل الروسي في سبيل تحقيق دستور ديمقراطي.

وفق هذا البناء نرى أنّ النصّ يعرف تصاعدا تدريجيا في الأحداث بتدوين الرباعيات من قبل الخيام، وما تزامن مع هذا التأليف من تغيرات في مجتمعه الفارسي، كما تتواتر سرعة النصّ وتتباطأ بسرقة مخطوط سمرقند، ليبرز حسن

الصّباح متأمّلا رباعيات الخيام، وبذياع صيت الخيام في أوربا، يظهر لوساج الأمريكي باحثا عن المخطوط الأصلي للرباعيات، مصادفا أحداثا جديدة على الساحة السياسية الإيرانية، فيرجع النصّ للتصاعد مرة أخرى، لتتواتر سرعته عند إضاعته، فينحدر بناء النصّ، بأمل لوساج إيجاده مرة أخرى.

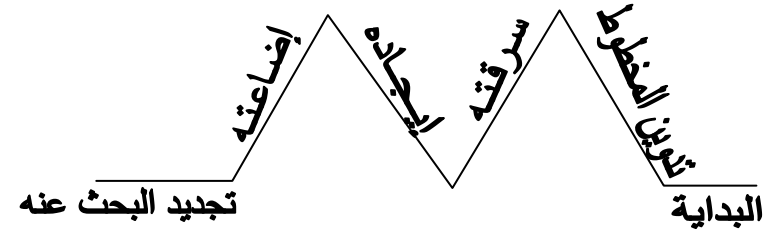

فمعلوف قدم لنا بناء متماسكا متينا، من خلال تتبعنا للحركات الأربع في علاقتها بأقسام النصّ وكتبه وعلاقات الشخصيات ببعضها بعضا في كلتا المرحلتين، فهذا البناء المنفتح، تتضافر لتقديمه كافة العناصر (نحوية/دلاليّة) على مستوى علاقة القصة بالخطاب أو على مستوى زمن النصّ، الذي حاولنا رصده من خلال التقسيم إلى كتب ومقاطع وحركات حيث لم يقدم معلوف المادة التاريخية كما كانت في ذهن القارئ، بل يعرض تجربته الفنية وموقفه من الزمن، ومن خلال تكسير خطية التتابع الزمني، وترهين الحكي.

فنص سمرقند ظهر في أواخر الثمانينات وبالتحديد سنة 1988، وفي هذه الفترة بدأ الصّراع بين الشرق والغرب يشتد تأزما، وبدأت تطرح فكرة الحوار بينهما قبل عقد من هذا الزمن[22]، خاصة ببداية تصدّع المعسكر الشيوعي، وأصبح العالم يعيش في عالم القطب الواحد الرأسمالي.

غرق رباعيات الخيام في أعماق المحيط، نقطة نهاية النصّ، وعلينا تفحص ومعاينة كيف قدمت هذه النهاية هل مفتوحة أو مغلقة؟ من خلال تحديد انغلاق الخطاب أو انفتاحه في علاقته بالقصة في النهايات البنيوية.

22- الحبيب جنحاني: حوار الحضارات لماذا؟ وكيف؟ ومع من؟، مجلة العربي، العدد557، أبريل 2005، ص/16.

- القصة: تنغلق القصة في سمرقند على ذاتها، بغرق المخطوط في أعماق المحيط، لكنها تنفتح بضياع شرين حفيدة الشاه وزوجة عمر لوساج في أمريكا بعد نجاتها من الغرق، التي كانت متعلقة بمخطوط الخيام تعلّقا شديدا، ربّما هامت تبحث عنه، ويبقى زوجها آملا في إيجادها مع المخطوط الشرقي، وربّما تعود من جديد لتوقظ فيه سحر الشرق برباعيات شرقية للخيام حفظتها عن ظهر قلب.
- الخطاب: إنّ نهاية القصة في خطاب سمرقند، تعلن عن نهايتها الدّلالية بشكل مباشر.

« فقد كنت أعرف أنّ ذلك المخطوط كان بالنسبة إليها، كما بالنسبة إليّ أكثر من جوهرة وأنفس من تحفة أثرية، وأنّه كان إلى حد ما سببا في وجودنا معا، وما كان فقده بعد هذا القدر من المحن إلاّ ليحزن شرين أشد الحزن ... »[23].

في هذه النهاية الدّلالية تنتهي قصة سمرقند عمليا، لكنّها تنغلق بنيويا، لكن الخطاب يظل مفتوحا من خلال تلك الإشارات وغيرها الدّالة في النصّ عبر رؤية الزمن « رباعيات الخيام على التيتانيك، زهرة الشرق تحملها زهيرة الغرب! ليتك ترى يا خيام اللّحظة الحلوة التي كتب لنا أن نحياها »[24].

هذه إشارات تدل على استحالة التقاء الشرق، والغرب والوصول لحوار بين هذين العالمين المتباعدين، ضياع المخطوط الشرقي (الشرق) عدم وصوله للغرب، بالإضافة إلى فراق شرين الشرقية عن لوساج الغربي، ربّما تعود ...!؟ ربّما يتلاقى الشرق والغرب ...! يتحاوران، يجسدان التسامح ...!

هذا الضياع هو امتداد زمني للماضي القريب والبعيد، فبارجاع هذا الضياع للتاريخ تكمن إنتاجية النص، فإنّ ما حدث الآن امتداد طبيعي وتاريخي لذلك الأمس، ضياع الشرق في النهاية (المخطوط، شرين) وانتصار الغرب في كل الأحوال (عمر لوساج بنيامين)، فسمرقند رؤية جوهرية، وموقف ذاتي لمعلوف

23- سمرقند، ص/372.
24- سمرقند، ص /374.

من الزمن، كل هذا بيناه من خلال تمظهرات الـزمن في الخطـاب، وفي القصـة وفي النصّ، عبر البناء الدّاخلي لـنص سمرقنـد، الـذي حاولنـا في تحليلـه الوقـوف علـى اللّعب الزمني بصوره المتنوّعة، وتكسير خطيـة الـزمن، وتـرهين الماضـي (القصـة) في الحاضر الخطاب، فأمين معلوف وهو يبني نصه زمنيا يقدّم لنا نصا منفتحا مـن خلاله يبرز لنا موقفه من الزمن، وتجربته الفنية.

واكتفينا بدراسة الزمن علـى المسـتوى الـدّاخلي (زمـن الكتابـة)، ولـم نتطـرق للمستوى الخارجي (زمن القراءة) لانعدام القـراءات النقديـة لسـمرقند والـتي تعتـبر النقطة المركزية للحكم على النصّ بانغلاقه أو انفتاحه على المستوى الخارجي.

المصادر والمراجع

1. أمين معلوف: سمرقند، تـر: عفيـف دمشـقية، دار الفـارابي–Anep، الجزائـر، ط2، 2001
2. يقطين سعيد: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الـدار البيضـاء، المغرب، 1997.
3. انفتاح النصّ الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001.
4. AMINE MAALOUF: Samarcande, ed Gasbah, Alger, Algérie, 2000
5. BARTHERS.R: "introduction à l'analyse des récit", communication, seuil, N°8 1966
6. BENVENISTE.E: problèmes de linguistique générale, édition tel. Gallimard, TI 1966, TII 1974.
7. GENETTE.G:
   - "frontières du récit", communication, seuil, N°8, 1966.
   - discours du récit", fugures II, seuil, 1972
   - palimpsestes la littérature du second degré, seuil, 1982.
8. R.Fowler: linguistique and the novel, Methuen. London, third edi, 1984.
9. TODOROVE.T: les catégorie du récit littéraire, communication, N°8 . 1960
10. مجلة العربي، العدد557، أبريل 2005.